

عناصر الحوار القرآني وشروطه



لابدّ للحوار من مُناخ يعيش فيه، كي يتحوّل إلى عملية منتجة، بدلاً من أن يكون عملاً ضيقاً عقيماً في الشكل والمضمون. وقد أراد الرسول، في القرآن الكريم أن يوجد القاعدة الأساسية لهذا المُناخ، بالتخطيط العملي لتوفير الخصائص الضرورية لذلك، وفي مقدّماتها، شخصية المحاور الذي يقود عملية الحوار ويتبنّاها وشخصية الطرف الثاني للحوار، حيث الحالة النفسية التي تعيش مع الحوار في طريق المعرفة والإيمان، لا في الجدل العقيم.

ثمّ... المحاولة الجادة لخلق الأجواء الهادئة للتفكير الذاتي المستقل، الذي يبتعد عن التأثيرات الانفعالية، التي تُربك ذهن الإنسان وتفكيره، وتبعده عن الآفاق التي يمثّل فيها شخصيته الخاصة، لا شخصية الآخرين؛ لأنّ لا يكون مجرد ظل للآخرين، لا يملك أن يريد وأن لا يريد، لأنّه لا يملك أن يفكّر أو أن لا يفكّر.

وخلاصة ذلك، أنّ العناصر التي يجب توفرها في عملية الحوار منها:

1- شخصية المحاور الذي يدير عملية الحوار:

من الطبيعي لأي حوار يدور بين اثنين، لينتهي - في هدفه - إلى النتيجة الحاسمة من الإيمان العميق المنفتح والمتقبّل لنتائج الحوار، أن يحقق شرطاً أساسياً، هو أن يملك كلٌّ من الطرفين حرّية الحركة الفكرية، التي يملك معها الثقة بشخصيته الفكرية المستقلة؛ فلا يكون واقعاً تحت رحمة الإرهاب الفكري والنفسي، الذي يشعر معه بالانسحاق أمام شخصية الآخر، نتيجة إحساسه في أعماقه بالعظمة الكبيرة والمطلقة التي يملكها الآخر، فتضاءل - إزاء ذلك - ثقته بنفسه، وبالتالي، ثقته بفكره وبقابليته لأن يكون طرفاً للحوار، فيتجمّد عند ذلك، ويفقد قدرته على الحركة الفكرية، فيتحوّل إلى صدى للأفكار التي يتلقّاها من الآخر.

وقد عمل الرسول الكريم - من خلال تعاليمه في القرآن الكريم - على توفير ذلك الشرط للآخرين عندما كان يتحدث إليهم، فحاول، انطلاقاً من ذلك، أن يؤكد - في أكثر من مناسبة - على جانب البشرية فيه؛ فهو بشر مثلهم، لا يملك أيّة قوّة غير عادية في تكوينه الذاتي.

قال تعالى: (قُلْ إِنزَمَمَا أَنَا بِشَرِّ مِثْلِكُمْ يُوْجَى إِلَيَّ - أَنزَمَمَا إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَوَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) (الكهف/ 110).

وقوله سبحانه: (قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَسْتُ كَتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (الأعراف/ 188).

2- شخصية الطرف الآخر للحوار:

لابدّ لمن يدخل في عملية الحوار من إعداد جوّه الداخلي، للافتناع بالنتائج الحاسمة التي يقوده إليها، وإلا انقلب الموقف إلى جدل عقيم، لا يُراد منه إلا عرض العضلات الكلامية والمزايدات الجدلية، التي لا تقدّم أو تؤخّر في الموضوع؛ لأنّ الفكرة قد أُعدت سلفاً بشكل لا مجال للتراجع عنه على قاعدة من الدوافع الذاتية والاجتماعية التي لا ربط لها بالقناعة الذاتية الفكرية، المرتكزة على أساس من الحجّة والبرهان.

وقد ركّز القرآن على هذا الجانب، فتحدّث عن أولئك الذين لا يريدون أن يؤمنوا أو يقتنعوا، وذلك في قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا سُلَالًا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ) (الأنعام/ 25-26).

وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (البقرة/ 6-7).

إنّها الصورة الحيّة لأولئك الذين يستمعون إلى الدعوة، وقلوبهم مغلقة عن وعي ما يسمعون، وآذانهم مسدودة عن الإصغاء إليها؛ فإذا جاءتهم آيات الله بكلّ جلاء ووضوح، أعرضوا عن الإيمان بها، لأنّ لديهم ما يواجهون به هذه الآيات، ليبرروا به إنكارهم ورفضهم - فهم لا يملكون شيئاً من ذلك - بل لأنّهم يريدون أن ينكروا عناداً وكفراً.

وربّما نجد نماذج حيّة من هؤلاء في الواقع المعاصر من الكثيرين من أعداء الدين، الذين لا يملكون علماً يواجهون به الفكر الديني، في عقائده ومفاهيمه العامّة في شؤون الحياة، إلا كلمة الأسطورة و«الخرافة» يدمغونه بها، أمّا لماذا؟ وكيف؟ فهذا ما لا يحاولون الإفاضة فيه؛ وربّما يلجأون إلى طريقة يغلقون بها باب الجدل في الموضوع، بالإيحاء بأنّ الدين قد انتهى دوره وتجاوزته العصر، ليحلّ محله العلم، ولكنّهم لا يدعمون ذلك بالحجّة الواضحة والبرهان القاطع، لأنّهم لا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً.

وقد نجد هناك بعض الآيات التي تجسّد هذا الموقف تجسيداّ حياّ، يظهر - بوضوح - فظاعة المكابرة

التي يلجأ إليها هؤلاء في موقف الإنكار والجحود الأعمى، وذلك في قوله تعالى:

(وَأَقْسَمُوا بِمَا جَعَدُوا إِذْ يُبْعَثُ إِلَيْهِمْ رُسُلُهُمْ لِيُذَكِّرَهُمْ آيَاتِهِمْ وَلِيُنذِرَهُمْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُحَانٍ مُّسَكَّنٍ فَغُولَةٌ خَالِدَةٌ فِي السَّمَاوَاتِ لِقَوْمٍ أَلْفَتُوا * وَإِن يَدْعُنَّ إِلَى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنزَلْنَا نَزْلًا إِلَيْهِمْ * الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُدْعُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِن كَثُرُوا أَكْثُرًا * (الأنعام / 109-111).

فإن هؤلاء لا يريدون الإيمان بالله، ويطالبون بآيات خارقة للعادة، يقترحونها على النبي محمد (ص) كشرط من شروط الإيمان، لعلمهم بأن ذلك غير وارد في رسالته، فإن الآيات ليست لعباً.

فليست القضية آيات تقترح ليُستجاب لها أو لا يُستجاب؛ بل القضية قضية فقدان الاستعداد للإيمان، مهما كانت الآيات والبراهين.

ونلتقي في هذا النموذج مع الناس الذين يكابرون ولا يريدون أن يقتنعوا أو يؤمنوا، ببعض الأشخاص الذين يصورهم لنا القرآن الكريم بصورة رائعة، في قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَنزِيلًا آيَةً كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْلِهِمْ تَشَابَهتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّضْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُؤْفِكُونَ (البقرة / 118).

وقوله تعالى: (وإذ قالوا للهِمَّ إِنَّا كَانُوا هَذَا هَوًى الْحَقِّ مِنَّا مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْتُنَّا بِعَدَابِ أَلِيمٍ) (الأنفال / 32).

إنها الأساليب الساذجة التي تحاول أن تتلمس الإيمان من خلال طلب مواجهته بالرؤية، أو سماع كلامه مباشرة، أو طلب تلمس عذابه على أساس موقف الإنكار، كما هي الحال لدى بعض الناس ممن يريدون خداع البسطاء والساذجين من الناس.

وفي مقابل تلك الصورة القاتمة التي يعطيها القرآن الكريم للمعاندين والمكابرين الذين لا يريدون أن يؤمنوا، مهما كانت وسائل الإيمان موفورة لديهم، تواجهنا الصورة المشرقة للنموذج الحي الرائع الذي يبحث فيه الإنسان عن الحق ويسعى إليه، وهي صورة النبي العظيم إبراهيم (ع)، في موافقه التي كان فيها هو نفسه طرفاً للحوار الذاتي أمام دعوة الحق والباطل.

قال تعالى: (وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيْكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّآ جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّآ رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَيْسَ لِي مِنْ الْفُلُومِ الصَّالِينَ * فَلَمَّآ رَأَى الشَّمْسَ مَسَّ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الأنعام / 75-79).

فقد بدأت القضية لديه كما بدأت عند البسطاء والساذجين من قومه، من الخضوع للظواهر الكونية، بما تمثل له من عظمة، وبما يكتنفها من أسرار، فكانت عبادة الكواكب، وعبادة القمر، وعبادة الشمس، وكانت الأوضاع المختلفة لها، هي التي تقر طبيعة العبادة لهذه أو تلك، في وعي أولئك الناس، على ضوء ما نفهمه من التدرج في قضية الألوهية المدعاة من الصغير، إلى الكبير، إلى الأكبر، ما جعل

إبراهيم - وهو يصوّر تفكير قومه - يشعر بالخضوع للشمس - في النهاية - فيعتبرها ربّاً يستحقّ العبادة، لأنّها أكبر من الكوكب ومن القمر، فهي أحقّ بالعبادة، لأنّها تحمل من مظاهر العبادة ما لا يحملانه .

وكانت الفكرة تنمو في ذهنه، أمام عظمة هذه أو تلك، ولكنها لم تلبث أن تراجعت إزاء حالة الأفول التي تمثّل الضعف والغيوبة عن الكون، ممّا يجردّها عن صفة الألوهية التي تخلق الكون وتديره وترعاه وتدبّره .

وينقل لنا القرآن الكريم صورة أُخرى عن إبراهيم النبيّ (ع) في موقف آخر، يجسّد لنا فيه طبيعة الإنسان الذي يريد أن يؤمن، ويعمل على أن يتجاوز الإيمان إلى مستوى الاطمئنان الروحي، ولذا فهو يبحث عمّا يركّز هذه الطمأنينة في القلب، وهو قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَتْ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَتْ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَبْطِغَنَّ قَلْبِي قَالَتْ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَيَّ كُلَّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة/ 260).

فهو يؤمن بقدرته [المطلقة إيماناً] ينبع من التفكير والملاحظة، ولكنه يطلب أن ينطلق الإيمان من الحسّ، لأنّه يربط القلب بالفكر، والعقل بالنظر وبكلّ قوّة... ولم يكن هذا الطلب تحدّيّاً، بل كان دعاءً ورجاءً حارّاً يتمنّى فيه على [] - بشعور صادق - أن يستجيب له لقدرته على ذلك، وحاجته إليه من خلال مسؤوليته الرسالية في مجتمعه الكافر الذي اضطرت فيه جوانب العقيدة وتعدّدت فيه طُرُق الضلال.

وهكذا استطعنا أن نجد في شخصية إبراهيم، من خلال هاتين الصورتين اللتين يعرضهما القرآن له في حوارهِ المتحرّك في طريق الإيمان، الشخصية الدينية للطرف الثاني للحوار، الذي يريد أن يصل إلى الحقّ، فيعمل كلّ ما في طاقته لتحقيق هذا الهدف الكبير، دون أن يمنعه من ذلك مانع قريب أو بعيد.

3- خلق الأجواء الهادئة للتفكير المستقلّ:

لعلّ من أشدّ الأمور ضرورةً لوصول الحوار إلى هدفه، وجود الأجواء الهادئة للتفكير الذاتي الذي يمثّل فيه الإنسان نفسه وفكره، والابتعاد عن الأجواء الانفعالية التي تعيق الإنسان عن الوقوف مع نفسه وقفة تأمّل وتفكير.

وقد صوّر لنا القرآن الكريم ذلك، في ما نقله لنا من أسلوب النبيّ محمّد (ص) في الحوار مع خصوم العقيدة، عندما واجهوه بتهمة الجنون. فقد دعانا إلى أن نتجرّد عن هذا الجوّ الانفعالي، إذا ما أردنا أن نتبذّي فكرة أو نرفضها، أو ننسجم مع موقف، أو نبتعد عنه.

قال تعالى: (قُلْ إِنْ زَمَمَا أَغْطِ كُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَتَّئِدِي وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ) (سبأ/ 46).

فقد اعتبر القرآن الكريم اتهام النبيّ بالجنون، خاضعاً للجوّ الانفعالي الذي كان يسيطر على التجمّع العدائي لخصومه آنذاك، ما جعلهم لا يملكون ما يستطيعون أن يترنوا به صحّة القضايا وفسادها، بل طلّات أفكارهم صدى لأفكار الآخرين، ولذلك دعاهم إلى الانفصال عن هذا الجوّ المحموم بأن يتفرّقوا مثنى وفرداً، في موقف فكر وتأمّل، يُرجع إليهم أفكارهم وشخصياتهم، ليصلوا إلى النتيجة الحاسمة بأسرع وقت، لأنّ طبيعة الفكر الهادئ الواعي الذي يواجه شخصية النبيّ محمّد (ص) وأفكاره وتعاليم رسالته، سوف يضع القضية في موقعها الطبيعي الذي يرفض هذه التهمة جملة وتفصيلاً، لينتهي - بعد ذلك - إلى الإقرار بأنّه رسول [] إلى الناس لينذرهم بالعذاب الأليم.

وقد نجد مثل هذه الأجواء الانفعالية في كل مكان واجهنا فيه واقع الصراع المرير الذي يخوضه الإسلام مع أعداء الإسلام، سواء منهم الملحدون، أو غيرهم ممن يختلف معهم في تفاصيل العقيدة والشريعة، فنلتقي بالاتهامات التي تُطلق بلا حساب في أجواء الجماعة، كنتيجة لمواقف الدُّعاة إلى الإسلام الذين يتوجّهون إلى المجتمع بالفكر الإسلامي الأصيل، ممّا لا ينسجم مع واقع الانحراف الفكري أو العملي الذي تعيشه مجتمعات الكفر والضلال.. فينطلق أعداء الإسلام باتهاماتهم الظالمة المدروسة التي تصفهم بالرجعية تارةً، في إطار قضية التقدّم الفكري والاجتماعي، وبمحاربة الوطنية أُخرى، وبالتعاون مع الاستعمار ثالثة، في نطاق قضية التحرّر الوطني السياسي.

ثمّ لا يقف الأمر بهم عند هذا الحدّ، بل يحاولون أن يتخذوا من ابتعاد المجتمع عن قوانين الإسلام، وعن روحه واستلامه لقوانين أُخرى وعقليات كافرة، مجالاً لتأليب الناس على هذا الفكر وهذا الدّين.

ثمّ يضيفون إلى هذه الصورة أسلوباً جديداً في مواجهة هذا التشريع، فيقولون إنّه يخلق في المجتمع مجموعة من الأفراد الذين يعيشون عالماً عليه، لأنّهم لا يملكون إمكانية العمل، بسبب فقدان أيديهم التي يعملون بها إذا أرادوا ممارسة العمل الشريف، وينطلقون بهذا الأسلوب وأشباهه في أجواء انفعالية وعاطفية، ويغفلون الجوانب الأساسية التي انطلق منها التشريع في حساب الربح والخسارة في حياة المجتمع، ويثيرون المشاعر العدائية على أساس ذلك، ممّا لا يجعل للعاملين مجالاً للمناقشة في هذا الجوّ المحموم.

وقد يتمثّل ذلك في الحديث عن المرأة وحقوقها، وقضية السفور والحجاب، وتعدّد الزوجات، وفانون الطلاق، وغير ذلك من الأحكام، التي قد يكون لها بعض الآثار السلبية في بعض المجتمعات التي نشأت على مفاهيم منحرفة وأفكار ضالة.

وهكذا يجد الدّعاة المسلم كلّ هذه القضايا التي لا يطلقها أعداء الإسلام من قاعدة فكرية تفسح المجال للمناقشة الحرّة، بل يحاولون إثارتها في أجواء عاطفية وحماسية، تعطي الأساليب المتبّعة في ذلك أجواء الانفعال التي تغرق الجماهير في حالات لا شعورية متوترة، لا تترك للتفاهم سبيلاً.

وفي ضوء ذلك، لا بدّ لهذا الدّعاة من العمل الجادّ للابتعاد بجوّ الحوار عن هذه الأجواء الانفعالية المشدودة إلى الجوّ العدائي العام، ليجرّهم إلى الجوّ الهادئ الذي يعيدهم إلى جذور الفكرة وأُسسها الأصيلة من جديد، لتبدأ رحلة الحوار من بدايات الفكر لا من نهاياته.

وقد يحتاج الإنسان الدّاعي - في عملية خلق الأجواء الهادئة للحوار - إلى الالتفات إلى بعض الحالات، التي يخضع فيها أطراف الحوار إلى إحساس عميق بقداسة الفكرة التي يؤمنون بها ويدافعون عنها، انطلاقاً من جوانب عاطفية ترتبط بالذات وبالعلاقاتها، بعيداً عن أيّ منطق فكري أو عقلي.

ولا يقتصر هذا على العقيدة، بل يمتدّ إلى العادات التي تحكم سلوك الناس في حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية، كما هي الحال لدى الشعوب البدائية التي ترتفع عاداتها المتوارثة إلى مستوى القداسة في حياتها، من دون أن يكون لهذه القداسة أيّ أساس فعلي، إلا ارتباطها بالآباء والأجداد الذي يُخضع الأبناء إلى الشعور العميق بقداسة ذكراهم.

فإنّ قضايا الفكر تنبع من عقل الإنسان وذهنه، بعيداً من أيّ تأثير عاطفي أو خارجي، فليس أمام الإنسان ليؤمن أو لا يؤمن، إلا أن يدرس القضية في إطارها الطبيعي من خلال الجوانب التي تؤثّر فيها وتتأثّر بها من ناحية فكرية.. ولولا ذلك، لم يستطع النبيّ (ص) أن يصل إلى نتيجة حاسمة في هذا المجال، لأنّهم - مع إصرارهم على قداسة الماضي - لا يوافقون على مناقشة الفكرة من حيث المبدأ، فكيف يمكن إقناعهم بها وجرّهم إليها.

وتتّضح لنا الصورة الجيّدّة، في عرض الفكرة ومناقشة المنهج في الآيات القرآنية الكريمة:

